تحقيق الجاحظ (١)

- ٤ -

« الاستعانة بالعقل »

تجربة وعيان وسماع : هذه اصول الجاحظ في تحقيق الأخبار ، وأريد بالاخبار في هذا المقام أخبار العلم وخاصة علم الحيوان فقد استكمل الجاحظ كثيراً من صفات العالم : جرّب وعاين وسمع ولهذه الاصول شأن عظيم في علوم الطبيعة وبلغ من هذا الشأن أنهم عابوا بعض علماء الطبيعة بزهدهم في التجربة والعيان فعابوا مثلاً العالم (بوفون) ببعض كتبه في نشوء الارض وفي أدوار الطبيعة فقالوا فيه : وصف كثيراً وعاين قليلاً (٢) .

فالجاحظ لم يفته فضل العيان والتجربة وان فاته في بعض الأحوال روح الترتيب في الذي عاينه أو جرّب عليه ، او فاته خيالُ العالم ، وأعني بهذا الخيال قدرة العالم على التعميم وعلى الحزر والحدس لاستنباط القوانين العامة ، او فاته التمكن من انشاء المقاييس العلمية فقد نجد كثيراً من معارفه مبعثرة لايجمعها نظام واحد .

وكما جرّب وعاين فقد سمع وكان في معرفة السماع شديد التثبت والتوثق .

ولقد ضمّ الى هذه المذاهب كلها ، الى التجربة والعيان والسماع مذهباً آخر وهو العقل ، فقد جعل العقل دليله في مجامع اموره ، فما كان يصدّق الا ما تثبته الأدلة و يحققه الامتحان فالعقل في نظره انما هو الحجة في حكم الامور .

فلننظر في مجلسنا هذا في طائفة من خصائص عقله قد نهتدي اليها في أبواب كثيرة

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) ادب القرن الثامن عشر (اميل فاكه ص ٤٣١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من أبواب الحيوان كالكلام على بعض عجائب الحيوان او على طول عمر البغل وأعمار ذكورة العصافير او على ابتلاع السمكة للطعم او على وضع النمرة ولدها وهو متطوق بافعى او على القاح الثور او على الضفادع او على الخلق المركب او على الأفاعي او على ولد الكركدن او على خلق السنانير والخنازير او على تعاون الذر او على غير ذلك من الامور التي قد يطول استقصاؤها .

فاذا أردنا ان نعرف خصائص هذا العقل في التحقيق لزمنا ان ننظر الى بعض مواطن من المواطن التي يظهر فيها تصرف العقل ومقدار نفاذه ، وأظن اننا اذا بحثنا عن اشياء يسيرة من طبيعة نقده العلمي او من طبيعة شكه في بعض امور العلم او من طبيعة تنقيبه عن علة هذه الامور استطعنا أن نحيط بناحية من نواحي عقله .

اما طبيعة نقد الجاحظ في أبواب العلم فالذي يعنينا من أمرها انما هو الوقوف على الامور التي وطّن نفسه على إبطالها وردّها اوالوقوف على الامور التي كان يعيب بها عالماً من العلماء ، فهل كان يقرع الحجة باشباهها ام كان يرد قولاً من الأقوال مقتصراً على مجرّد الرد وهل كان يجسر على نقد العلماء دون التقيد بشيء ومن هم العلماء الذين نقدهم .

واما طبيعة الشك فالذي يهمنا من شأنها ان نعرف أيميل الجاحظ الى الشك ، أيشك في الامور وصولاً الى اليقين ام يشك فيها للشك وحده ، واذا شك في امر فهل يبين الأسباب التي من أجلها يبطل هذا الأمر في نظره ، ام انه يشك في هذا الأمر دون بيان شيء من هذه الاسباب .

واما طبيعة تنقيبه عن علة من العلل فالذي يشغلنا منها انما هو مقدار تصرف عقله في هذا التنقيب ومبلغ نفاذ هذا العقل .

فلنتفرغ قبل كل شيء للكلام على نقده العلمي ، ما الذي كان يشغل بال الجاحظ في هذا النقد ، هل كان يجسر على التكذيب في كل حين ، من هم العلماء الذين نقدهم .

همّ الجاحظ الأبعدُ عرض الامور على التصحيح والتمييز فقد كان مولعاً بالتنبيه على الخرافات سواء أكانت هذه الخرافات في أبواب العلم أم كانت في ابواب الدين فهو كثير التنديد بعبث الامور وممنعها فاذا أصاب فرصة في التحذير من توليد الكذابين ومن غرائب الاخبار حذّر بقدر ما أوتيه من حكمة وبيان ، فان الذي لا يصدق الا ما تثبته الأدلة ويحققه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العيان والتجربة والسماع قد يصعب عليه ان يجعل مجال الخرافات ذا سعة فمن قوله في هذا المعنى[١] :

« وقد ابتلينا بضربين من الناس ودعواهما كبيرة ، احدهما يبلغ من حبه للغريب ان يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين وقلبه قراراً لغرائب الزور ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُرَف لا يقف على التصحيح والتمييز فهو يدخل الغث في السمين والممكن في الممتنع ويتعلق بادنى سبب ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر وهو ان بعضهم يرى ان ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم الا من خاف التقذر من الكذب ...

فالجاحظ كما يتبين لكم من هذا الكلام يكره غرائب الاخبار مما لا يحققه العقل . ومن هذه الغرائب التي تجرّد لردها والتحذير منها كلامهم على بعض الخلق المركب فقد قال[٢] :

« وقالوا في الخلق المركب ضروباً من الحق والباطل ومن الصدق والكذب .... وزعم حريث انه كان بأبْدجَ فاذا سحابة ضحياء تكاد تمس الارض وتكاد تمس قمم رؤوسهم وانهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق وكهدير الفحول في الأشوال ثم انها دفعت باشد مطر رؤي او سمع به حتى استسلموا للغرق ثم اندفعت بالضفادع العظام ثم اندفعت بالشبابيط السمان الخزال فطبخوا واشتووا وملحوا وادخروا » .

وقال في مقام آخر شبه هذا الكلام[٣] :

« وفيها اعجوبة أخرى وذلك انا نجد من كبارها وصغارها الذي لا يحصى في غب المطر اذا كان المطر ديمة ولم نجدها في المواضع التي ليس بقربها بحر ولا نهر ولا حوض ولا غدير ولا واد ولا بئر ونجدها في الضحاضح الأمالس وفوق ظهور مساجد الجماعة حتى زعم كثير من المتكلفين ومن اهل الجسارة وممن لا يحتفل بسوء الحال عند العلماء ولا يكترث للشك انها كانت في السحاب ولذلك طمع اكثر الكذابين ممن نكره اسمه فذكر ان اهل

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٥٨) .
(٢) » » » الاول ص ٦٨) .
(٣) » » » الخامس ص١٥٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أيدّج مطروا اكبرشبابيط في الارض وأسمنها وأعظمها وانما تلك الضفادع شيء يخلق في تلك الحال بمزاوجة الزمان وتلك المطرة وتلك الارض وذلك الهواء والضفادع من الخلق الذي لاعظام له ويزعم اصحاب الغرائب ان العلاجيم منها المذكورة السود ويقال أرشح من ضفدع وتزعم الاعراب ان الضفدع كان ذا ذنب وان الضب سلبه إياه وذلك في خرافة من خرافات الأعراب ولا يكون ذلك حتى يجمع بين الاروى والنعام وحتى يجمع بين الماء والنار وحتى يشيب الغراب وحتى تقع السماء على الارض » .

يستخرج مما تقدم ان الذي يشغل بال الجاحظ انما هو التنبيه على الكذابين وعلى غرائب الأخبار الا انه قد لا يكلف نفسه في بعض هذا التنبيه المجيء بالبرهان وكأنما رأى ان تكذيب هذه الأعاجيب انما هو معلوم في بدائه العقول فلا يحتاج الى شيء من البراهين .

وقد يظهر لنا ان حرية النقد كانت ضيقة المذاهب في بعض الاحايين فكان الجاحظ يشير الى الأجناس العجيبة من الأقوال دون ان يجسر في كتبه على تكذيب العلماء ودرّاس الكتب او على تسميتهم من هذا النحو قوله [1] :

« والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن وتزعم انه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته فلا يشعر بمكانه ولا يحس به حتى ينقطع على الأيام وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول في ولد الكركدن ما يخبرنا به ناس من اهل النظر والأدب وقراءة الكتب وذلك انهم يزعمون ان النمرة لا تضع ولدها ابداً الا وهو متطوق بافعى وانها تعبش وتنهش الا انها لا تقتل ولو كنت اجسر في كتبي على تكذيب العلماء ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر وليس هذا عندي كزعمهم ان الأفعى تلد وتبيض لأن تأويل الأفعى ينفصل ببيضها فاذا طرقت بالبيض تلون فخطمته في جوفها ثم ترمي بتلك القشور والحراشي اولاً فأولاً ولا بد لكل ذات حمل ان تلقي مشيمتها » .

او قوله في موطن آخر في خرافة من الخرافات وهو لم يسم صاحب هذه الخرافة [2] :

« ومما لا اكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها الآكل وقاح أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب يقرأها ويدارس اهل البصرة ويتحفظها زعموا ان

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٤٢) .
(٢) » » » » ص ٤٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى وسمعت هذا من جماعة منهم من لا استجيز تسميته ، قال الفضل بن اسحق : انا رأيت المفص والبلوط في غصن واحد ، قال : ومن المفص مايكون مثل الاكر وقد خبرني بذلك غيره وهو يشبه تحول الانثى ذكراً والذكر أنثى وقد ذكرت العرب في اشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والاجناس وهم اخبر الخلق بشأن الضبع فكيف تركت ماهو اعجب واظرف وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم نر احداً ذكر ذلك واولئك باعيانهم هم الذين يزعمون ان الثمر تضع في مشيمة واحدة جروا وفي عنقه افعى قد تطوقت به واذا لم يأتنا في تحقيق الاخبار شعر شائع او خبر مستفيض لم نلتفت اليه » .

على انه قد تعرض لجماعة فسماهم وجسر على تكذيبهم فقد قال [1] :

« ورووا عن ابي وائلة انه زعم ان من الدليل على ان الشبوط كالبغل ان الناس لم يجدوا في طول ما اكلوا من الشبابيط بيضاً قط فان كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً فما اعظم المصيبة علينا فيه ، وما اخلق الخبر ان يكون صحيحاً وذلك اني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان واقسام الاجناس يدل على ان الرجل حين أحسن في اشياء وهمته العجب بنفسه انه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه وغرّه من نفسه الذي غرّ الخليل بن احمد حين احسن في النحو والعروض فظن انه يحسن الكلام وتأليف اللحون فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما الا المرّة المحترقة ولا يؤدي الى مثل ذلك الا خذلان من الله تعالى فان الله عز وجل لا يعجزه شيء » .

الا ان الذي تعرّض له كثيراً في كتابه انما هو ارسطاطاليس فقد عاب عليه اموراً كثيرة منها انه لم يبن في تحقيقه على الاصول التي بنى عليها الجاحظ نفسه ، اي لم يثبت اموره بالعيان او بمعرفة السماع ، من هذا النحو قوله [2] :

« وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر ان ثوراً سفد والقح من ساعته بعد ان خصي .

فاذا افرط المادح في المديح وخرج من المقدار وافرط المتعجب في التعجب وخرج من

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول صفحة ٦٨) .

(٢) » » » الخامس » ٧٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المقدار احتاج صاحبه الى ان يثبته بالعيان او بالخبر الذي لم يكذب مثله والا فقد تعرّض للتكذيب ولو جعلوا حركتهم خبراً وحكاية ونبروا عن عينه ماضرهم ذلك فكان ذلك أصون لأقدارهم واتم لمروآت كتبهم » .

او قوله في موطن آخر (١) :

« وفي المثل : أغلم من تيس بني حمّان وحمّان تزعم انه فقط سبعين عنزاً وقد فربت أوداجه فهذا من الكذب الذي يدخل في باب الخرافة .

وقد ذكر صاحب المنطق انه قد ابصر ثوراً وثب بعد ان خصي فنزا على بقرة فأحبلها ولم نجد هذا من معاينة ، والصدور تضيق بالرد على اصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشكل » .

او قوله (٢) :

« واما قول صاحب المنطق في ان الضفادع لاتنق حتى تدخل فكها الاسفل في الماء لان الصوت لايجيئها حتى يكون في فيها ماء فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان وانما زعمه بان السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم الا ببعض الماء فأي عيان دل على هذا وهذا عسير » .

او قوله (٣) :

« وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل وما يليق بمثله ان يخلّد على نفسه في الكتب شهادات لايحققها الامتحان ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء وما عندنا في معرفة ماادّعى الى هذا القول » .

ولم يقتصر الجاحظ على مؤاخذة ارسطاطاليس بانه لم يعتمد في تحقيقه على العيان والسماع والامتحان وانما عاب عليه في بعض الأحوال انه اذا تكلم على حيوان فانه لا يستوفي عجائب هذا الحيوان ، من هذا كلامه على الفيل (٤) :

(١) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ١٧٤ .
(٢) » » » » » ١٥٦ .
(٣) » » » الاول » ٨٧ .
(٤) » » » السابع » ٧٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وما أعجب ماقرأت لصاحب الحيوان في كتاب المنطق وجدته وقد ذكر قصر عنقه ولم يذكر انقلاب لسانه وذلك اعجب مافيه ولم ينظر في كم يضع ولا مقدار مدة حمله وكيف يخرج من بطن أمه نابت الاسنان » .

وأحياناً كان يتعرض له فيقف في تعرضه موقفاً وسطاً دون دفع الخبر او قبوله كقوله [1] :

« وذكر صاحب المنطق ان الطير الكبير الذي يسمى باليونانية (اعتيوليس) يحكم عشه ويتقنه ويجعله مستديراً مداخلاً كأنه كرة ورووا انهم يزعمون ان هذا الطائر يجلب الدارصيني من موضعه فيفرش له عشه ولا يعشش الا في اعالي الشجر المرتفعة المواضع ، قال وربما عمد الناس الى سهام فيشدون بها رصاصاً ثم يرمون بها أعشاشها فيسقط عليهم الدارصيني فيلتقطونه و يأخذونه ...

ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن خبر صاحب الدارصيني وان كنت لا اعرف الوجه في ان طائراً ينهض من وكره في الجبال او بفارس او باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر من ان يكون من الاوابد وان كان من القواطع فكيف يقطع الصحصحان الأملس وبطون الاودية وأهضاب الجبال بالتدويم في الاجواء و بالمضي على السمت لطلب ما لم يره ولم يذقه ، وأخرى فانه لا يخلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً الا بالاختلاف الطويل وليس بالوطيء الوثير ولا هو بطعام فأتا وان كنت لا أعرف العلة فلست انكر الامور من هذه الجهة » .

وقد تعرض لغير ارسطاطاليس فتعرض لابي زيد النحوي وحشره في جملة علماء السوء فعابهم بانهم لم يكونوا في تحقيقهم من حذاق المتكلمين كقوله [2] :

« وأما الذين ذكروا في أشعارهم السبع والعسبار فليس في ظاهر كلامهم دليل على ما ادعي عليهم الناس من هذا التركيب المختلف فأدينا الذي قالوا وامسكنا عن الشهادة اذ لم نجد عليها برهاناً .

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث الصفحة ١٦٢ .
(٢) » » » الاول » ٨٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وللناس في هذا الضرب ضروب من الدعوى وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها ، كالذي يدعون من اولاد السعالى من الناس كما ذكروا عن عمرو بن يربوع وكما يروي ابوزيد النحوي عن السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى حنت وطارت اليهم فقال شاعرهم :

رأى برقا فأوضع فوق بكر فلا يأمًا اسأل وما اغاما

وأنشدني أن الجن طرقوا بعضهم فقال :

أتوا ناري فقلت منون انتم فقالوا : الجن ، قلت عموا ظلاما

فقلت الى الطعام فقال منهم زعيم : نحسد الانس الطعاما

ولم أعب الرواية وانما عبت الايمان بها والتوكيد لمعانيها فما اكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه وعلى ان يجعل الرواية سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله وابو زيد واشباهه مأمونون على الناس الا ان كل من لم يكن متكلماً حاذقاً وكان عند العلماء قدوة واماماً فما اقرب إفساده لهم من إفساد المتعمد لإفسادهم » .

وكان في بعض نقده يعيب طائفة من الناس بوضعهم الموجب من الامور موضع المقرّب منها ، و بانزال الدليل منزلة شبه الدليل كقوله [1] :

« والذين زعموا ان ذكورتها لا تعيش الا سنة يحتاجون الى ان يعرّفوا الناس ذلك وكيف يستطيعون تعريفهم ذلك وقد تكون القرى بقرب المزارع والميازب مملوءة عصافير ومملوءة من بيضها وفراخها وهم مع ذلك لم يروا عصفوراً قط ميتاً » .

والذين زعموا ان البغل انما طال عمره لقلة السفاد والعصفور انما قصر عمره لكثرة السفاد وغلطه لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم احد من العلماء والامور المقربة غير الامور الموجبة فينبغي ان يعرفوا فضل ما بين الواجب والمقرب وفرق ما بين الدليل ومشبه الدليل ولعل طول عمر البغل يكون للذي قالوا ولشيء آخر وليس ينبغي ان نجزم على هذه العلة فقط » .

هذه جملة القول في نقده والذي يستخلص من هذا النقد ان الجاحظ لجأ اليه للتنبيه على مواطن الزور في ابواب العلم مما لا يحققه العقل فكأن الجاحظ يقول :

(١) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ٧١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا اصدّق من الامور الا ما كان واضحًا وهذه خطة (ديكارت) نفسه كما علمتم ذلك .

ولم ينقد الجاحظ للنقد وحده ، انه أجلّ من ذلك وانما نقد وصولاً الى الحقائق فكان مرة يدل على الخرافات ويحذّر منها ومرة يشير الى مزلات أقدام بعض العلماء كما أشار الى إعراض ارسطاطاليس عن استعمال التجربة والعيان والسماع في بعض مباحثه العلمية و كما عاب اباز يد النحوي بانه لم يكن من حذّاق المتكلمين .

وقد كان في بعض نقده يستغني عن الإتيان بالبرهان لان من الامور التي نبّه على بطلانها مايقبله العقل دون برهان .

فغاية الجاحظ في نقده العلمي الوصول الى الحقيقة والحقيقة ضالّة العالِم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net